

الأسلوب بين النقد العربي القديم والأسلوبية الحديثة مقاربة في ضوء تغير النسق المعرفي

د. محمد برونه

جامعة وهران

إن لكلمة الأسلوب حضوراً محترماً في الدراسات التراثية وبخاصة في مباحث الإعجاز القرآني، التي وجدت عند كل الذين تعرضوا له فهما وتفهماً "للدلول الكلمة عند بحثهم المقارن بين أسلوب القرآن وغيره من أساليب العرب، متخذين ذلك وسيلتهم لإثبات الإعجاز، وتفاوت هذا المفهوم ضيقاً واتساعاً من باحث إلى آخر".¹

1_ ابن قتيبة (- 276 هـ)

يربط ابن قتيبة بين تعدد الأساليب والافتنان فيها، وطرق العرب في أداء المعنى حيث يقول : "ولمّا يعرف "فضل القرآن" من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات؛ فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب..."²

إذ يقول: "فالخطيب من العرب، إذا ارتجل كلاماً في نكاح، أو حمالة، أو تحضيض، أو صلح أو ما أشبه ذلك - لم يأت به من واد واحد، بل يفتن: فيختصر تارة إرادة التخفيف، ويطيل تارة إرادة الإفهام، ويكرر تارة إرادة التوكيد، ويخفي بعض معانيه حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه

الأعجميين، ويشير إلى الشيء ويكنى عن الشيء. وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال، وقدر الحفل، وكثرة الحشد، وجلالة المقام. ثم لا يأتي الكلام كله مهذباً كل التهذيب، ومصفى كل التصفية، بل يمزج ويشوب ليدل بالتناقص على الوافر وبالغث على السمين، ولو جعله كله مجزاً واحداً لبخسه بهاءه، وسلبه ماءه.³

نلاحظ من خلال هذا النص ربطاً صريحاً وواضحاً بين طرق أداء المعاني في أنساق مختلفة، إذ لا بد أن يتجسّد ما يسمى؛ لكل مقام مقال، فتعدد الأساليب عند ابن قتيبة يعود بالأساس إلى الاختلاف في المواقف، ثم يليه في مرحلة ثانية طبيعة الموضوع، وأخيراً إلى فنيات المتكلم وقدراته... كما نراه يربط بين النوع الأدبي وطرق السبك وكيفية الصياغة، وذلك عندما ربط بين الخطبة وموضوعاتها؛ "نكاح أو حمالة أو تحضيض أو صلح" وغيرها...⁴

ونجده في "الشعر والشعراء"، يقسم الشعر إلى أربعة أضرب: "ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه... وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى... وضرب منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه... وضرب منه تأخر معناه، وتأخر لفظه"⁵.

وأضاف بعد ذلك: "فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطيل فيملّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمّاً إلى المزيد."⁶

يريد ابن قتيبة أن ينهج الشاعر المنهج الملائم لحال المتلقي، وأن يهتم بجمال السامع فلا يجعله يمل ولا يتركه إلى المعاني مفتقراً.

2_ الخطابي (- 388 هـ) :

يربط الخطابي في رسالته "بيان إعجاز القرآن" بين الأسلوب والغرض الذي يتضمنه النص الأدبي، من حيث تعدد الأساليب دالاً على تعدد الأغراض، فقد تحدث عن المعارضات في مذاهب الكلام قائلا:

"وها هنا وجه آخر يدخل في هذا الباب، وليس بمحض المعارضة والمقابلة، وهو أن يجري أحد الشعراء في أسلوب من أساليب الكلام وواد من أوديته، فيكون أحدهما أبلغ في وصف ما كان بياله من الآخر في نعت ما هو بإزائه، وذلك مثل أن يتأمل شعر أبي دؤاد الإيادي والنابعة الجعدي في صفة الخيل، وشعر الأعشى والأخطل في نعت الخمر، وشعر الشماخ في وصف الخمر، وشعر ذي الرمة في صفة الأطلال والزمن ونعوت البراري والقفار، فإن كل واحد منهم وصاف لما يضاف إليه من أنواع الأمور، فيقال : فلان أشعر في بابه أو مذهبه من فلان في طريقته التي يذهبها في شعره. وذلك بأن تتأمل غط كلامه في نوع ما يُعنى به ويصفه، وتنظر فيما يقع تحته من النعوت والأوصاف، فإذا وجدت أحدهما أشد تقصياً لها، وأحسن تخلصاً إلى دقائق معانيها، وأكثر إصابة فيها حكمت لقوله بالسبق، وقضيت له بالتبريز على صاحبه، ولم تبال باختلاف مقاصدهم وتباين الطرق بهم فيها."⁷

ومن هنا، نلاحظ أن للخطابي فهما يختلف عن فهم ابن قتيبة، إذا تعلّق الأمر بالأسلوب، حيث إن لكل منهما اتجاهه الفكري في تقدير الإعجاز القرآني، فابن قتيبة يربط بين الأسلوب ومختلف أنواعه، وتعددها يلزم تعدد طرائق أداء المعنى.

بينما الخطابي كانت وجهته الربط بين الأسلوب والغرض أو الموضوع، فكلما تعددت الموضوعات التي تناولها الأديب، تعددت الأساليب وتشكلت بطبيعة هذا الموضوع، وعليه تعقد المقارنة بين الشعراء في المجال الواحد الذي يخوضون فيه، أما إذا افترق مدخلهم إلى موضوعات متعددة ... فإننا نحكم لكل منهم بالسبق فيما هو فيه، وما اختص به كلامه، ولكل أسلوبه المتميز في مجال معين أو غرض خاص به، فنقول: فلان أشعر في الوصف، وفلان في الهجاء، وهكذا...⁸

3_ الباقلاني : (- 403هـ):

ربط الباقلاني بين الأسلوب والنوع الأدبي، واتخذ من هذا دعامة له في إثبات تفرد القرآن بالنظم العجيب المخالف لضروب الصناعة التي يعرفها الشعراء ويستخدمونها في شعرهم... يقول الباقلاني: "ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين المؤلف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد. وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر، على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجّع، ثم إلى معدل موزون غير مسجّع، ثم إلا ما يرسل إرسالاً، فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف..."⁹

وَبَدَا الصَّبَاحُ كَأَن غُرَّتْهُ وَجْهُ الْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدِّحُ

وللقرآن أسلوبه المتميز، فهو يختلف عن كلام العرب وأساليبهم شعرا ونثرا... قال تعالى: (قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً).¹⁰

4_ عبد القاهر الجرجاني (471 هـ):

أما الأسلوب عند عبد القاهر فهو بمثابة الضرب من النظم والطريقة فيه، حيث يقول : "واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه أن يبتدئ الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً - والأسلوب هو الضرب من النظم والطريقة فيه - فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب، فيجيء به في شعره، فيشبه بمن يقطع من أدبهم نعلًا على مثال نعل قد قطعها صاحبها، فيقال : قد احتذى على مثاله."¹¹ والاحتذاء هنا لا يعني التقليد وانعدام الشخصية، فقد أكد الإمام عبد القاهر على عملية الوعي في تركيب الأسلوب عندما تحدث عن الاستعارة، وأن منها نوعاً لا يعرفه ولا يصل إليه إلا ذوو الروحانية والأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة،¹² لأن "لها أساليب كثيرة ومسالك دقيقة مختلفة."¹³

ولاحظنا أن عبد القاهر يربط الأسلوب بطريقة أداء المعنى على وجه معين عن طريق التمثيل حيث يقول: "وإن كان مما مضى إلا أن الأسلوب غيره، وهو أن المعنى إذا أتاك ممثلاً فهو في الأكثر ينجلي لك بعد أن يحوجك إلى طلبه بالفكرة، وتحريك الخاطر له، والهمة في طلبه، وما كان منه اللطف، كان امتناعه عليك أكثر، وإياؤه أظهر، واحتجابه أشد."¹⁴

فالأديب المبدع يتفنن في أسلوبه بحيث يشدّ إليه المتلقي؛ لأن "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، كان نيله أحلى وبالمزية أولى..."¹⁵

وربط الأسلوب بالخصائص التعبيرية في حديثه عن "قلب التشبيه" مما يؤكد ارتباط الأسلوب عنده بأنماط الأداء في تركيب العبارة، فيعلق على قول محمد بن وهيب :

"واعلم أن هذه الدعوى، وإن كنت تراها تشبه قولهم : (لا يُدرى أوجهه أنور أم الصبح ، وغرته أضوأ أم البدر؟)، وقولهم إذا أفرطوا: (نور الصباح يخفى في ضوء وجهه)، أو (نور الشمس مسروق من جبينه)، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة، فإن في الطريقة الأولى خلافةً وشيئاً من السحر، الإغراق والمبالغة، فإن في الطريقة الأولى خلافةً وشيئاً من السحر، وهو أنه كأنه يستكثر للصبح أن يشبه بوجه الخليفة...¹⁶¹¹

وما هو جليّ، فإن مفهوم عبدالقاهر الجرجاني للأسلوب يرتبط تنظيراً وتطبيقاً بمفهومه للنظم من حيث أنه نظمٌ للمعاني وترتيبٌ لها.

فالأسلوب – كما ورد – ينصبُّ على الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني، وما تحويه هذه الطريقة من إمكانات نحوية وتعبيرية تميز ضرباً عن ضرب وأسلوباً عن أسلوب.¹⁷

5_ الزمخشري : (- 538 هـ) :

أما الزمخشري فيربط بين معنى الأسلوب والخصائص الأسلوبية، أو بين الأسلوب وكوامنه، وهذا ما بدا جلياً في حديثه عن أسلوب الالتفات في قوله تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (3) مَا لَكَ يَوْمَ الدِّينِ (4) إِلَيْكَ نَعْبُدُ وَإِلَيْكَ نَسْتَعِينُ (5)).

حيث يقول : "فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب، قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى : (حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ) وقوله تعالى : (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتَتَّبِعُهُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ

فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْشُّورُ (9)) وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن، نظرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد.¹⁸

وطبق الزمخشري هذا المنحى لفهمه للأسلوب في كشفه عن وجوه الحسن في قوله تعالى: (الم، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك...) ¹⁹

فقال: "وهذا أسلوب صحيح محكم، أثبت - أولاً - أن تنزيله من رب العالمين، وأن ذلك ما لا ريب فيه، ثم أضرب عن ذلك إلى قوله: -أم يقولون افتراه- لأن "أم" هي المنقطعة الكائنة بمعنى "بل"، والهمزة إنكاراً لقولهم وتعجيباً منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن مثل ثلاث آيات منه، ثم أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك..." ²⁰

فالزمخشري في تحليله للنص القرآني وبيان خصائصه الأسلوبية "يستند إلى مناهج البحث البلاغي من ناحية، والتركيب النحوي من ناحية ثانية، وأفاد من كل ذلك في كا مستوى من مستويات دراسته محاولاً الوصول إلى أقصى درجة من التدقيق الانطباعي أحياناً والرصد الموضوعي للخصائص الأسلوبية أحياناً أخرى، رابطاً بين التأثير الانفعالي لدى المتلقي والخصائص التعبيرية في النص الأدبي عامة والقرآني خاصة." ²¹

6_ فخر الدين الرازي (- 606 هـ) :

لم يكتف الإمام الرازي في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" بالربط بين الأسلوب والنوع الأدبي، إذ قدم إضافة جديدة في مجال دراسة الأسلوب، هذه الإضافة هي محاولته للربط بين الأسلوب والكاتب/الباث، حيث اعتبر الأسلوب خاصية تمثل مؤلفها، لأن كل أسلوب له خصائصه الفنية التي يتفرد بها، وبهذا يصح وصف كل أسلوب على حدة بالتفرد، فأسلوب الشعر متميز لأن له خصائص فنية يتميز بها، وأسلوب الخطابة متميز لأن له هو الآخر سمات فنية يتفرد بها، وهكذا... يقول فخر الدين الرازي:

"ومن الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه يخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل، ولا سيما في مقاطع الآيات مثل ((يعلمون ويؤمنون)) وهو أيضا باطل من خمسة أوجه :

الأول : لو كان الابتداء بالأسلوب معجزا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا.

الثاني : أن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله.

الثالث : يلزم أن الذي تعاطاه مسيلمة²² من الحماقة في "إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر"، وكذلك: "والطاحنات طحنا..." في أعلى مراتب الفصاحة.

الرابع : أنه لما فاضلنا بين قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)²³ وبين قولهم : "القتل أنفى للقتل"²⁴ لم تكن المفاضلة بسبب الوزن، والإعجاز إنما يتعلق بما به ظهرت الفضيلة.

الخامس : وهو أن وصف بعض العرب القرآن بأن "له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، لا يليق بالأسلوب." 25

ومن هنا يظهر الفرق بين الأساليب، إذ يميّز الأسلوب بالفردية والخصوصية، ولكلّ أسلوبه؛ ويمكن تمييزها من العصور إلى العلوم إلى الأدباء والعلماء إلى الأجناس؛ "فالقرآن له أسلوبه الخاص، والشعر له أسلوبه الخاص، والخطب لها أسلوبها الخاص، والرسائل لها أسلوبها الخاص، ومسيمة له أسلوبه الخاص." 26

فالعلماء تنوعت آراؤهم ونظرتهم إلى الأسلوب، حيث تعطيك هذه الآراء مجتمعة معظم الأسس والقواعد الأساسية التي يقوم عليها علم الأسلوب في الدراسات الحديثة.

فذكر ابن قتيبة أسباب تنوع الأساليب، وربط بين تعددها وبين طرق العرب في أداء المعنى في نسق مختلف، كما أنه ربط بين الأسلوب وطرق الصياغة، وبين الأسلوب الذي يسلكه الشاعر أو الخطيب وحال المتلقي. وربط الخطابي بين الأسلوب والغرض الذي يتضمنه النص الأدبي كما فعل الباقلاني، إذ ربط بين الأسلوب والنوع الأدبي، ومن ذلك فإنّ أسلوب القرآن يختلف عن أساليب العرب في خطابها شعرا ونثرا. وأظهر عبد القاهر الجرجاني في وضوح تام، أن الأسلوب ضرب من النظم، كما أنّ كلّ نظم له خصائصه التي يميز بها عن غيره، وهو بذلك يربط بين الأسلوب وطريقة أداء المعنى.

وأظهر الزمخشري الخصائص الأسلوبية في طرق التعبير في تحليله للقرآن الكريم تحليلا بلاغيا يكشف عن حسن النظم فيه، ويبين الأوجه الجمالية التعبيرية

التي اشتمل عليها. ولم يكتف فخر الدين الرازي، بالربط بين الأسلوب والنوع الأدبي، وإنما تجاوز ذلك إلى الربط بين الأسلوب وصاحبه/ الكاتب/ المؤلف.

أما الذي ينظر في تناول النقاد والبلاغيين لمصطلح (أسلوب) يجد أنهم أكثر من غيرهم فهما وتوضيحاً لمدلول هذا المصطلح، وسنقف عند ذلك عندما نتناول ما جاء به أشهر النقاد والبلاغيين الذين تحدثوا في الأسلوب، منهم: ابن رشيق، والسكاكي، وابن الأثير، وحازم القرطاجني.

1_ ابن رشيق المسيلي (- 456 هـ)

اتجه ابن رشيق بالأسلوب إلى الصياغة اللفظية وما يتوفر فيها من تلاؤم الأجزاء وسهولة المخرج، وعذوبة النطق.²⁷ حيث يقول:

"قال أبو عثمان الجاحظ: (أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا؛ فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان). وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذ سماعه، وخف محمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وتحلى في فم سامعه، فإذا كان متنافرا متباينا، عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجته المسامع، فلم يستقر فيها منه شيء.²⁸

2_ أبو يعقوب السكاكي (- 626 هـ)

ربط السكاكي بين الأسلوب وخاصة التعبير كما فعل الزخشي، ولذلك تحدث عن أسلوب الالتفات ويُن أثره في المتلقي بقوله: "واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر

بل الحكاية والخطاب والغنية ثلاثها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام، إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب، أدخل في القبول عند السامع، وأحسن نظرية لنشاطه، وأملاً باستدراار إصغائه، وهم أحرىاء بذلك. أليس قرى الأضياف سجيّتهم، ونحر العشار للضيف دأبهم وهجراهم، لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديما، ولا أباحت لهم حرما، أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون، وطعم و طعم، ولا يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب، وإيراد وإيراد.²⁹¹¹

من هنا ندرك أن السكاكي يرى أن العرب مثلما يحسنون التنويع في الغذاء والأكل وإكرام الضيف، فإنهم أولى في تحسين غذاء العقول والأرواح بالتنقل بين أسلوب وأسلوب، وطريقة وأخرى في الكلام، فهم أمة الفصاحة والبيان.

3_ ابن الأثير (- 637 هـ)

ربط ابن الأثير بين الأسلوب وحسن التصرف في المعنى، فالشاعر المبدع المجيد، والكاتب البليغ، إذا أخذ في معنى من المعاني تصرفا فيه بوجوه متعدّدة، وأخرجاه في أنواع الأساليب، ومثل لذلك بهجاء جرير للفرزدق ووصفه له بالمفلق، وكيف أنه جاء بأساليب متنوعة في هذا الوصف.

قال جرير في هجاء الفرزدق :

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا لَيْ الْكَثِيفِ وَارْتِفَاعِ الْمَرْجَلِ³⁰

وقال أيضا :

وَجِدَ الْكَثِيفُ ذَخِيرَةً فِي وَالْكَلْبَتَانِ جُمُعِنَ وَالْمِشَارُ

يَكِي صَدَاهُ إِذَا تُصَدَّعَ أَوْ إِنْ تَفَلَّقَ بُرْمَةٌ أَعْشَارُ

وقوله:

إِذَا أَبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عَدُّوا أَبَانُ الْمُقْرِفَاتُ مِنَ الْعِرَابِ

فَأُورِثَكَ الْعَلَاءَ وَأُورِثُونِي رِبَاطَ الْخَيْلِ أَفْنِيَةَ الْقِيَابِ

وَسَيْفُ أَبِي الْفَرَزْدَقِ فَاغْلَمُوهُ قَدُومٌ غَيْرُ ثَابِتَةِ النِّصَابِ 31

ثم قال ابن الأثير معلقاً على هذه الأبيات :

"فانظر أيها الواقف على كتابي هذا، إلى هذه الأساليب التي تصرف فيها جرير وأدارها على هجاء الفرزدق بالقيين؛ فقال أولاً: إن أباه شغل عن المكارم بصناعة القيون، ثم قال ثانياً: إنه يكي عليه ويندبه بعد الموت المُرْجَلُ والبرمة الأعشار التي يصلحها، ثم قال ثالثاً: إن أباك. أورثك آلة القيون، وأورثني أبي رباط الخيل؛ قد أورد جرير هذا المعنى على غير هذه الأساليب التي ذكرتها، ولا حاجة إلا التطويل بذلك هاهنا، وهذا القدر فيه كفاية." 32

يؤكد ابن الأثير أن هناك رابطاً بين الأسلوب وشخصية صاحبه وبراعته الفنية، من حيث استخدام هذه البراعة والقدرة في عرض الفكرة في أسلوب متميز وطريقة متفردة، إذ بإمكاننا "أن نلمس هذا التميز من عرض فكرة واحدة لشاعرين مختلفين، يتصرف كل منهما فيها بأوجه التصرفات كما رأينا عند الفرزدق وجرير." 33

4_ حازم القرطاجني (- 684 هـ)

أما حازم القرطاجني، فقد كتب فصلاً مطوّلاً في منهاجه، بعنوان: "المنهج الثالث في الإبانة عن الأساليب الشعرية، وأنحاء الاعتمادات فيها وما يجب أن تعتبر

به أحوالها في جميع ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها" وأنها تختلف باختلاف الأغراض وأحوال المخاطبين: "إن أساليب الشعر تنوع بحسب مسالك الشعراء في كل طريقة من طرق الشعر، وبحسب تصعيد النفوس فيها إلى حزنونة الخشونة أو تصويبها إلى سهولة الرقة أو سلوكها مذهبا وسطا، بين/ ما لان وما خشن من ذلك. فإن الكلام منه ما يكون موافقا لأغراض النفوس الضعيفة الكثيرة الإشفاق مما ينوبها أو ينوب غيرها، ومنه ما يكون موافقا لأغراض النفوس الخشنة القليلة المبالاة بالأحداث.³⁴¹¹

وقد قسم الأنحاء التي تأتي عليها الأساليب، كأن يكون الكلام مبنيا على الرقة المحضة، أو على الخشونة المحضة. ثم انتهى إلى أن "الأسلوب حياة تحصل عن التأليفات المعنوية، والنظم حياة تحصل على التأليفات اللفظية.³⁵¹¹

ومن هنا، يمكننا القول؛ إنَّ الأسلوب عند البلاغيين هو نوع من التركيب، أو الطريقة التي يأتي عليها الكلام فالوصل والفصل أسلوب، والقصر والذكر أسلوب، والإيجاز والإطناب أسلوب. وأنَّ لكل أسلوب مقامه الذي يتوخاه.

وهذه التعريفات للأسلوب وغيرها، تتدرج نحو علم الأسلوب، ونجد هذا الأمر واضحا في التراث العربي، فمفهوم (النظم) عند عبد القاهر الجرجاني، يرتبط بشكل يكاد يكون منسجما بمفهوم (الأسلوب)، وما حديث عبد القاهر عن معنى (الاحتذاء) بين الشعراء إلا دليل على ذلك.

لقد اتضح من خلال قول عبد القاهر الجرجاني، أن الأسلوب ضرب من النظم، بل هو النظم، وكاد أن يجعل هذا ذاك، وذاك هذا، فالأسلوب ضارب جذوره، ولعلم الأسلوب إرهاصات وبذور في التراث العربي.

وإن كانت الرؤيا العميقة والبحث الصائب في هذا المجال، يكون - في اعتقادنا - قد ظهر على يد عبد القاهر الجرجاني، فإن أمورا كثيرة من هذا العلم، نجدها ماثورة في كتب شتى؛ في الأدب والنقد والإعجاز القرآني، والنحو والبلاغة، كما سبق ذكره.

وهذا لا يعني " أن إرثنا الثقافي قد تكفل بكل شيء، وما قاله الأقدمون يغطي خارطة الحاضر، ويدثر بعباءته ثخوم المستقبل،³⁶¹ وإنما نريد أن نبحت-ولو على بصيص من المعرفة- في هذا المجال العلمي، وبخاصة إذا كانت له علاقة واتصال بالبيان والبلاغة، وكان العرب على دراية بهذا العلم، وهذا ما نعينه، أي أن " التذكير بوضاعة تلك التحليلات التراثية، سواء ما اندرج منها تحت المباحث البلاغية- وهي الأوضح- أو ما اندرج في دراسة النص القرآني- وهي كثيرة متعددة- أو في شروح الشعر.³⁷¹ ولا نغالي أيضا إذا أشرنا إلى قضايا أسلوبية من منظور مستحدث كان تراثنا قد تناولها بصيغة أو بأخرى، ولهذا يجدر بنا، "أول الأمر وآخره، استجلاء نقاط وضيفة بحسبانها تواصل إنسانيا ثقافيا لا يمكن جحده، سواء ما اتصل بالجانب التنظيري أو بالجانب التطبيقي في التراث العربي، وفيه ما يشكل... تصورا كليا أو تلامسا في قضايا جزئية، وربما ما يتوافق ويتراق مع منظورات مستحدثة.³⁸¹

وفي هذا المجال يمكن لنا أن نسوق بعض النصوص، أولا لحازم القرطاجني: " يجب على من أراد جودة التصرف في المعاني وحسن المذهب في اجتلابها والحذق بتأليف بعضها إلى بعض أن يعرف أن للشعراء أغراضا أول هي الباعثة على قول الشعر. وهي أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس، لكون تلك الأمور مما

يفاسبها ويسطها، أو ينافرها ويقبضها، أو لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة في الأمر من وجهين.³⁹¹

ويرى سعد مصلوح، أن ثمة "وشائج قوية بين مفهوم الأسلوب عند ريفاتير، ونظرية التخيل الشعري التي استنبطها الفلاسفة المسلمون من شرحهم لكتاب الشعر الأرسطي، ووصلت ذروة نضجها عند البلاغي العربي أبي الحسن حازم القرطاجني صاحب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)⁴⁰¹.

وثانياً، نصوص أخرى لعبد القاهر الجرجاني، الذي أكد أموراً نجد كثيراً من معانيها مبثوثة في نصوص غربية لمنظرين للأسلوبية في العصر الحديث، منها: "إنك ترتب المعاني أولاً في نفسك، ثم تحذو في ترتيبها الألفاظ في نطقك ... ثم نرى الذين لهجوا بأمر اللفظ قد أبوا إلا أن يجعلوا النظم في الألفاظ نرى الرجل منهم يرى ويعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يجيء بالألفاظ مرتبة إلا بعد أن يفكر في المعاني ويرتبها في نفسه على ما أعلمناك.⁴¹¹

وقبل هذا التوضيح والتأكيد الذي جاء به عبد القاهر، فإنه كان قد ساق نصوصاً قبلها في توضيح ترتيب المعاني في النفس، قبل ترتيب الألفاظ، أولاً: "نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحرّاه، فلو أن واضع اللغة قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس...⁴².

فثانياً: " والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرفتَه عرفتَ أن ليس الغرضُ بنظم الكلام، أن توالى ألفاظها بالنطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل ⁴³¹ .

ثم ثالثاً: " إنَّ الألفاظ إذ كانت أوعيةً للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق، ⁴⁴¹ ورابعاً: " لا يُتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنتك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوتَ بها آثارها وأنتك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدَم للمعاني وتابعة لها، ولاحقة بها. وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق. ⁴⁵ "

نجد مثل هذا الطرح والشرح في أسلوبية التعبير، وقد بنى شارل بالي Charles Bally (1865-1947) أسلوبيته، على وظيفتين أساسيتين في اللغة؛ التعبير عن الأفكار، والتعبير بالكلام عن الأحاسيس والميولات والأهواء.

ويشكل المضمون الوجداني للغة، موضوع الأسلوبية عند بالي، حيث يقول: " تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي إنها تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبر عنها لغوياً، كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية. ⁴⁶¹ وأسلوبية بالي - تولد انطباعاً خاصاً في المتلقي: وهو الأثر، ولذا تسمى أسلوبية (التأثيرات) ⁴⁷، إذا كان بالي يستعمل؛ (الفكر)،

و(الوجدان/الحساسية) و(الانطباع)، فإن عبد القاهر استعمل لفظي (العقل)، و(النفس)، لأنّ هذه الثنائيات (عقل/فكر، ونفس/ وجدان، وانطباع/ حساسية) تستخدم كل منها معنى واحداً.

وبين بالي وعبد القاهر، نلاحظ أنّ العاطفة هي التي تحدّد طبيعة اللفظ وسماته، كما تعين ترتيبه وحركته، كما يرى ل. سبتر (Léo Spitzer) أنّ الأسلوبية مبدأ العمل الذي "يقوم في ذهن الكاتب وليس في الظروف المادية... وأن اللغة انعكاس لشخصية الكاتب، وتبقى غير منفصلة عن كل أدوات التعبير التي يمتلكها... وأن العمل باعتبار أنه نتاج (سبب ذهني) فلا يمكن الوصول إليه إلا بالحدس والتعاطف"⁴⁸، أي أن اللفظ يعد علاقة خاصة لانفعال ونظام معينين في ذات الأديب (المبدع)، كما نلاحظ أن رؤية عبد القاهر واضحة بشأن اللفظ الذي هو علامة المعنى، والنظم - كما يقول - لا يمكن أن يحدث إلا من خلال نظم المعاني في الذات⁴⁹. والأمر نفسه شغل حازم القرطاجني، الذي اهتم بعملية الإنتاج الأسلوبي والدافع العاطفي الوجداني، فيقول: "... فالأمر قد يُسيطر النفس ويؤنسها بالمسرة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف، وقد يبسطها أيضا بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع، وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سار إلى مآل غير سار".⁵⁰

نلاحظ من خلال هذا القول أن القرطاجني، قد حدد نوعين من الدوافع النفسية؛ أحدهما يسيطر النفس بدافع السرور، والآخر يتمثل في انقباض النفس بفعل الكآبة والخوف... " فالنظم -إذن- هو جوهر الشاعرية في القول الفني، ولا ترجع الشاعرية إلى التلاعبات الصوتية (ابن سنان) أو الوجوه البلاغية (ابن المعتز - قدامة)، بل إن هذه الأخيرة التي يطلق عليها الجرجاني "معنى المعنى" أو "الإيحاء"

إنما تتأسس على التأليف والترتيب ضمن سياقها النصي، ولا ترجع إلى اللفظ من حيث هو لفظ متزاح عن الاستعمال الأصلي؛ أي إنها تتأسس انطلاقاً من المحور المركبي وليس من المحور الاستبدالي، وهذا ما جعل بلاغة الجرجاني تتحرر من أسر البلاغة الإبدالية (نقل مدلول اللفظ إلى ذال آخر) التي انسلبت إلى البلاغة العربية بتأثير من أرسطو واستمرت حتى الآن.⁵¹

وملامح الأسلوبية، تظهر في تراثنا العربي من خلال البلاغة، إذ تعتبر الأسلوبية بتنا للبلاغة، وأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، فمقتضى الحال يدل على تنوع الأساليب وتعدددها.

الهوامش:

- 1- البلاغة والأسلوبية - محمد عبد المطلب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - دط - 1984 - ص 13
- 2- تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة - شرحه ونشره: أحمد صقر - المكتبة العلمية - بيروت - ط 3 - 1981 - ص 12.
- 3- المصدر نفسه - ص 13.
- 4- ينظر البلاغة والأسلوبية - محمد عبد المطلب - ص 14.
- 5- الشعر والشعراء - ابن قتيبة - تح: أحمد محمد شاكر - دار الحديث - القاهرة - ط 2 - 1998 - 69...64 / 1.
1. 6- المصدر نفسه - 76 / 1.
- 7- بيان إعجاز القرآن - أبو سليمان الخطابي - تح: محمد خلف ومحمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة - ط 2 - 1968 - ص 65-66.

- 8- ينظر البلاغة والأسلوبية - محمد عبد المطلب - ص 17.
2. 9- إعجاز القرآن - القاضي أبو بكر الباقلاني - تح: أحمد صقر - دار المعارف - القاهرة - ط 5- 1981 - ص 35.
3. 10- سورة الإسراء - الآية 88.
- 11- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تح: ياسين الأيوبي - المكتبة العصرية - بيروت - دط - 2002 - ص 428.
4. 12- ينظر أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني - تح: محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - جدة - ط 1- 1991 - ص 66.
- 13- المصدر نفسه - ص 66.
5. 14- المصدر نفسه - ص 139.
- 15- المصدر نفسه - ص 139.
6. 16- المصدر نفسه - ص 223.
- 17- ينظر البلاغة والأسلوبية - محمد عبد المطلب - ص 23 وما بعدها.
- 18- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - عبد الرحمن الزنجشيري - دار الفكر - بيروت - ضبط: أبو عمرو البصري - دط - دت - 10/1.
- 19- سورة السجدة - الآيات: 1-3.
- 20- المصدر السابق - الزنجشيري - 3/ 240.
7. 21- البلاغة والأسلوبية - محمد عبد المطلب - ص 22.
8. 22- مسيلمة بن حبيب النجدي ، ادعى النبوة باليمامة في بني حنيفة على عهد الرسول (ص)، بعد أن وفد عليه وأسلم... وزعم أن له قرآناً يأتيه من ملك يسمى ﴿رحمن﴾. وقد أنهى المسلمون بقيادة خالد بن الوليد ﴿ض﴾ قصته بقتله. عن الرازي ص 81؛ ينظر تاريخ الطبري، 506/2.
9. 23- سورة البقرة - الآية: 179.
- 24- مثل عربي مشهور. وينسب إلى أحد ملوك الفرس...

10. 25- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز- فخر الدين الرازي- تح: بكري شيخ أمين- دار العلم للملايين- بيروت- ط1- 1985- ص 82,81,80.
- 26- البلاغة والأسلوبية- محمد عبد المطلب- ص19.
11. 27- ينظر البلاغة والأسلوبية- محمد عبد المطلب- ص29.
- 28- العمدة- ابن رشيق المسيلي- تح: محمد عبد القادر أحمد عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2001- 1/258-259.
- 29- مفتاح العلوم- أبو يعقوب السكاكي ضبطه وشرحه: نعيم زرزور- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1983- ص199.
12. 30- لي الكنائف: إصلاح كليتي الحدادة. ارتفاع الرجل: إصلاحه.
13. 31- المقرفات : المقرف والمقرفة من الفرس وغيره ما يداني الهجنة , أي : أمه عربية لا أبوه , أبانه : استبان , العرباب : الخالصة العروبة , العلاوة: السندان , الرباط : الخيل , أو المكان المعد للمريضة.
14. 32- المثل السائر- ابن الأثير- تح: محي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- بيروت- دط- 1990- 2/382-383.
- 33- البلاغة والأسلوبية- محمد عبد المطلب- ص16.
15. 34- منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني- تح: محمد الحبيب بن خوجة- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط3- 1986- ص354.
- 35- المصدر نفسه- ص364.
- 36- البحث الأسلوبي- رجاء عيد- ص197.
- 37- المرجع نفسه ص197.
- 38- نفسه- ص198.
16. 39- منهاج البلغاء وسراج الأدباء- حازم القرطاجني- ص11.
17. 40- الأسلوب، دراسة لغوية إحصائية- سعد مصلوح- دار الفكر العربي- القاهرة- ط3- 1992- ص42.
- 41- دلائل الإعجاز- عبد القاهر الجرجاني- ص454.

18. 42- المصدر نفسه - ص 102.
- 43- المصدر نفسه - ص 102.
- 44- المصدر نفسه - ص 104.
- 45- المصدر نفسه - ص 105.
19. 46- الأسلوب والأسلووية - بير غيرو - ص 34.
20. 47- ينظر الأسلووية - ج. مولينيه - تر: بسام بركة - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - ط 1 - 1999 - ص 60.
- 48- المرجع نفسه - ص 56.
21. 49- ينظر دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - ص 103.
22. 50- منهاج البلغاء وسراج الأدباء - حازم القرطاجني - ص 11.
23. 51- اللغة والخطاب - عمر أوكان - أفريقيا الشرق - الدار البيضاء - ط - 2001 - ص 115-116.

